مخطوط لم ينشر لطه حسين

تقديم: نبيل فرج

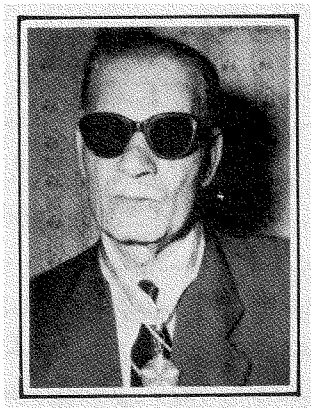

تتعرّض مخطوطات الكتّاب العرب، في غياب الوعي العام بقيمتها، للتبديد والضّياع. وما لم تكن هناك متاحف، ومكتبات مثل دور الكتب القوميّة، تُحفظ فيها هذه المخطوطات كوثائق أدبيّة وتاريخيّة هامّة، سواء كانت منشورة أو غير منشورة، فسيظلّ الوضع كما هو، يهدّد بالفقد كلّ ما نملك من مخطوطات لا تقدّر بثمن.

والمخطوط التّالي لطه حسين عبارة عن مقال لم ينشر، كان بين أوراقه الخاصّة الّتي خلّفها، وآلت بعد رحيله، في ٢٨ اكتوبر (تشرين أول) ١٩٧٣، إلى الدّكتور محمّد حسن الزيّات، زوج ابنته أمينة، الّذي سلّمني إياها منذ سنتين مع أوراق أخرى كثيرة، معظمها خطابات مرسلة إلى طه حسين من أدباء مصر والعالم، لتكون مادّة كتاب عن هذا الكاتب العظيم ومعاصريه، طلب مني إعداده، وبتعبير أدقّ اتّفقنا على إعداده.

وقبل أن نبدأ العمل رحل الزيّات في ٢٦ فبراير (شباط) ١٩٩٣، تاركاً في عنقي أمانة أرجو أن أكون كفؤاً لها.

أمّا هذا المقال فأغلب الظنّ أنّ طه حسين أملاه ثمّ صرف النّظر عن نشره لسبب أو لآخر.

ويمكن أن يهتدي القرّاء إلى هذا السّبب، إذا تأمّلوا بناء المقال ومضمونه، في ضوء شخصيّة طه حسين، وفي ضوء منهجه في الكتابة عموماً، وفي كتابة المقالات على نحو خاص.

وإذا كان من الصّعوبة بمكان أن يقودنا الشّكل إلى معرفة السّبب الحقيقي الّذي أدّى إلى عدم نشره، وقد يزيد من حيرتنا، فلنتأمّل المقال نفسه الّذي كتبه طه حسين بلغة سلسة هادئة، ولكنّها لا تخفي ما تحت السّطح من أعماق موّارة. وسنتبيّن بجلاء أن مضمونه، وهو الرّفض، أو قول «لا»، لم يكن في البلاد العربيّة، في أيّ عهد من العهود، بالأمر السّهل، لا على المستوى السيّاسيّ أو الاجتماعيّ أو الثّقافي أو الأخلاقيّ، لأنّه ينقض مبدأً من أرسخ المبادئ الّتي ترفضها القوى المهيمنة، وهي السّلطة والفكر النّقليّ، وأعني به مبدأ التّسليم والموافقة والمضيّ في الطّرق المعبّدة، داخل الأطر المحدّدة، والتّقليد.

وغنيّ عن البيان أنّ هذا النّقض فعل من أفعال الحريّة الملازمة للعقلانيّة.

وليست الثّورات وحركات التمرّد والتقدّم والمغامرة والابتكار والتّجديد، في كلّ تجلّياتها، إلاّ التّعبير العملي عن قول «لا».

والّذين اقتربوا من طه حسين، وقرأوا أعماله جيّداً، يدركون أنّ هذا المعنى، معنى «لا»، يسري في كلّ كتاباته، كما تسري النّار في الهشيم.

لهذا هوجم طه حسين كما لم يهاجم كاتب آخر في تاريخ الثّقافة العربيّة الحديثة، وصودرت بعض أعماله فاضطرّ إلى نشرها في لبنان، لكي يفلت من قبضة السّلفيّة الدينيّة، والرّجعيّة السّياسيّة. كما تعرّض منذ بداية حياته الفكريّة، قبل البعثة إلى فرنسا، وأثناء البعثة، وبعد عودته إلى وطنه، لمتاعب جمّة، إلى الحدّ الّذي فكّر فيه، أكثر من مرّة، خاصّة في الأربعينات، في الهجرة نهائيّاً من مصر، والإقامة في إحدى الدّول الأوروبيّة مثل فرنسا.

ولولا إيمان المثقّفين والجماهير العريضة بطه حسين، وبما يمثّله في تاريخنا، لرجحت كفّة الهجرة إلى الخارج، وقضى عميد الأدب العربي العقود الأخيرة من حياته مغترباً في المنافي.

والمقال التّالي، الّذي ينشر بعد أكثر من عشرين سنة من رحيل طه حسين، كشف أدبيّ تعتزّ به **الآداب**، لأنّ حياتنا الثّقافيّة لم تألفه مع أحد من قبل، فضلاً عن أن يكون كاتبه طه حسين، وأن يكون المخطوط معبّراً، بما أفصح عنه وبما لم يفصح عنه، عن فلسفة الكاتب العظيم، وعن حسّه الإنساني المرهف.

ولعلّ القارئ يجد في هذه الكلمة، ما يجيب على التّساؤل الّذي جعل طه حسين يحتفظ بهذا المخطوط، كاملاً أو ناقصاً، دون نشر..

نبيل فرج

←

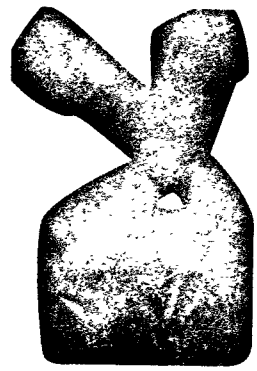

نعم هي أقصر الكلمات لفظاً وأطولها معنى، وهي أيسر الكلمات جرياناً على اللّسان وأعسرها صدوراً عن القلب والعقل، وهي أقرب الكلمات إلى الفهم وأسرعها وصولاً إلى الذّهن. ولكنّها على ذلك تكلّف عقول النّاس ألواناً من الشّطط وضروباً من الجهد حين يحاولون أن يتبيّنوا الأسباب الّتي أنطقت بها الألسنة وأجرت بها الأقلام، وحين يحاولون أن يتبيّنوا النّتائج والآثار الّتي تنشأ عنها حين تنطق بها الألسنة وحين تجري بها الأقلام.

وهي بعد هذا كلّه تدلّ فيما يظهر على معنى واحد لا يختلف النّاس فيه لأنّه أوضح من أن يحتمل الاختلاف وأجلى من أن يحتمل تباين الرّأي. ولكنّ أسبابها ونتائجها تدعو إلى اختلاف كثير في الرّأي وتباين شديد في التّفسير والتّأويل، وينشأ عن هذا كلّه أن تختلف معاني هذه الكلمة القصيرة اليسيرة فتدلّ على الرّفض كما تدلّ على القبول، وتدلّ على الامتناع كما تدلّ على الاستجابة، وتدلّ على التردّد بين هذين الموقفين وعلى التردّد الّذي يصدق مرّة ويكذب مرّة أخرى، وعلى التردّد الّذي يصدر عن الحيرة واضطراب الرّأي، والتردّد الّذي يصدر عن الحزم والجزم، وعن التردّد الّذي يصدر عن المراوغة والمساومة، وعلى ألوان أخرى من التردّد لا تكاد تحصى.

كلّ هذا وأكثر من هذا يُفهم من هذه الكلمة اليسيرة القصيرة، كلمة «لا». وأيّ لفظ أيسر جرياناً على اللّسان وأسرع استجابة للقلم من هذين الحرفين، وأيّ لفظ أوضح دلالة وأجلى معنى من هذين الحرفين، وأيّ لفظ من ذلك أشدّ تعقيداً وأدعى إلى أن تبذل العقول أجهد الجهد وتحتمل أشقّ المشقّة في فهم أسبابه ونتائجه من هذين الحرفين!)

ولذا لاحظْ قبل كلّ شيء أنّ من طبائع النّاس ما يأبى هذه الكلمة إباء شديداً ويمتنع عليها امتناعاً عظيماً فلا يفكّر فيها إلاّ حين يُلجأ إلى ذلك إلجاء، ولا ينطق بها إلاّ حين يضطر إلى ذلك اضطراراً. ولأمر ما قال الشّاعر القديم في مدح بعض الأجواد من بني هاشم:

ما قال «لا» قطّ إلاّ في تشهّده
لولا التشهّد كانت لاءَه «نعم»

فالرّجل الكريم الجواد لا يستطيع أن يقول «لا» إذا سئل، وإنّما يؤثر على هذه الكلمة كلمة أخرى تصوّر طبعه الخيّر ونفسه السّمحة واستعداده للجود والسّخاء. ومن طبائع النّاس ما يؤثر هذه الكلمة إيثاراً شديداً فلا يكاد يفكّر إلاّ فيها ولا يكاد ينطق إلاّ بها ولا يكاد يحيا إلاّ وقد اتّخذها جُنّةً يتّقي بها سؤال السّائلين ورغب الرّاغبين. فالكريم الجواد لا يحب «لا» وإنّما يحب «نعم»، والبخيل الكزّ لا يحب «نعم» وإنّما يحب «لا». وكلا الرّجلين يتّخذ الكلمة الّتي يؤثرها جنّة وترساً. فأمّا الكريم فإنّه يتّقي العار بكلمة «نعم»، وأمّا البخيل فإنّه يتّقي العطاء بكلمة «لا». وهذا أيسر ما يكون من الخلاف بين هذين اللّفظين، وهو في الوقت نفسه أيسر ما يكون من الدّلالة على ملاءمة كلمة «لا» لبعض الطّباع ومنافرتها لبعضها الآخر.

ولكن أمر هذه الكلمة أشدّ من هذا كلّه تعقيداً، فليس من الحقّ أنّ الكريم الجواد لا يحب كلمة «لا» كما قال الشّاعر القديم، وإنّما هو يبغض هذه الكلمة أشدّ البغض بالقياس إلى ما يتّصل بالكرم والجود؛ وهو يحبّها أشدّ الحبّ ويحرص عليها أعظم الحرص في كلّ ما يتّصل بما لا يلائم كرامة الرّجل الكريم من الصّغائر والدنيّات والضّيم الّذي تعافه كبار النّفوس. فطبع الرّجل الكريم ينافر «لا» أشدّ المنافرة حين يُسأل المال، ولكنّه يقارب «لا» أشدّ المقاربة حين يراد على ما لا يليق بكرامته. وقل مثل ذلك في الرّجل البخيل. فهو شديد الحرص على كلمة «لا» حين يسأل العطاء وهو شديد البغض لكلمة لا حين يسأل ما لا يزيد ثراءه قليلاً أو كثيراً.

على أنّ أمور هذه الكلمة تتعقّد فيما يعرض للنّاس أثناء حياتهم من المشكلات تعقّداً شديداً. فليس كلّ النّاس يأبى الضّيم وليس كلّ النّاس يرتفع عن الصّغائر وينزّه نفسه عن الدنيّات.

طه حسين